ثنائية المدخلات في قراءات الدكتور يونس السامرائي للشعر العربي

د.عبد القادر جبار
جامعة بغداد/ كلية الآداب

الخلاصة

قابل الدكتور السامرائي بين القصيدة التي مدح بها البحتري الخليفة المنتصر والقصيدة التي رثى فيها الخليفة المتوكل ، واذا كانت توصلات السامرائي لقصيدة المدح قد انطوت على تحليل التراكيب والالفاظ أحياناً فان تحليله لقصيدة الرثاء اعتمد علاقات الالفاظ والحروف (الفونيمات ، وحركة القافية ، وهذا التحليل اعتمد الخاص لاكتشاف حركة العام اما تحليل قصيدة المدح فأنه انطلق من العام الى الخاص ولاحظنا في هذا السياق ان السامرائي كان بحاجة لمعرفة القيمة الفنية في قصيدة المدح ولهذا حاول ان يتسلل اليها (الى القصيدة) من الظرف التاريخي الذي اسهم في انتاجها في حين كان السامرائي في تحليله قصيدة رثاء المتوكل بحاجة الى معرفة موقف البحتري الحقيقي من المتوكل ، وهذه الملاحظة نابعة من مسألتين ، الاولى ان البحتري كان طالبي الهوى وهو الموقف نفسه الذي كان عليه المنتصر في حين كان المتوكل مغايراً لموقف ولده المنتصر في هذه القضية وهذا التوافق في الرأي والموقف العقائدي المشترك بين البحتري والمنتصر لابد ان يزيد من حصة مديح البحتري للخليفة المنتصر لكن الذي حدث عكس ذلك اذ لم يمدح البحتري الخليفة المنتصر الا بقصيدة واحدة.

اما المسألة الثانية فأنها تتمحور في موقف المنتصر من البحتري وغضبه عليه وعلمه ان البحتري كان يعلم بأن الذي دبر عملية قتل المتوكل هو المنتصر نفسه كما ورد في ابيات قصيدة رثاء المتوكل، ولهذا السبب وجدنا عزوفا حقيقياً لدى البحتري عن مدح الخليفة المنتصر وفي الوقت نفسه وجدنا سلبية واضحة من الخليفة المنتصر تجاه البحتري عند تسلمه الخلافة ، وهذه الثنائية مستندة الى شعور البحتري ان ولي نعمته الحقيقي هو المتوكل وليس المنتصر الغادر بأبيه من اجل السلطة، هاتان المسألتان وجهتها سيرورة

الدراسة لدى الدكتور السامرائي ، فدرس البحتري في مدحه المنتصر استقرائياً في حين درس البحتري في رثائه المتوكل استنتاجياً ولهذا كان السامرائي شاملاً في تحليله النصين.

المقدمة:

تعد ظاهرة الانتماء الى المكان واحدة من اهم مدخلات الدراسات الادبية والفنية والفكرية ، وتعود اهميتها الى انها تشكل العامل التكويني الابرز في شخصية الاديب والمثقف وابداعه ايضا ، وعلى هذا الاساس درس عدد من الباحثين قضية الانتماء الى المكان ودرسوا قضية الانتماء الى الزمن بوصفه قوة محركة للنمط والايقاع الذي يرسم مسيرة الحياة في ظرف محدد ومؤطر ،حتى ان بعض الباحثين اطلق على هذا الانتماء تسمية (الظاهرة)[1] ، لكثرة استعماله في بحوث ودراسات الادباء القدماء والمعاصرين.

وشهد العراق بعد النصف الثاني من القرن العشرين بروز كتابات نقدية ودراسات مكانية زمانية ، عبر الدارسون فيها عن قوة الانتماء الى المكان بوصفه الاطار الذي صاغ النشأة والتكوين والمجال الذي شهد بواكير الفكر والثقافة والابداع ، ومن ابرز هولاء الدارسين والباحثين الدكتور يونس السامرائي (رحمه الله) ، اذ اعطى لمدينة سامراء جل اهتمامه وعصارة فكرة وخلاصة تجربته فانجز اكثر من ستة كتب تحدثت عن مدينة سامراء ، ولان بحثاً مثل الذي بين ايدينا لا يمكن له ان يسلط الضوء على كل منجز الدكتور السامرائي بشأن مدينة سامراء ، اثرنا دراسة كتابين يعدان في غاية الاهمية في سيرورة انجاز الدكتور السامرائي وهما (البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل)،(البحتري في سامراء بعد عصر المتوكل) ، وهذان الكتابان إنطويا على طروحات نقدية مهمة وكبيرة بالنسبة الى زمانهما ، وريادة في طرائقية البحث الاكاديمي والدرس النقدي ، لهذا سنسلط الضوء على ابرز الاتجاهات النقدية فيهما والمنهج الذي استخدمه الدكتور السامرائي في معاينة النص الشعري.

حل اشكالية المنهج:

ظل المنهج المعتمد في الدراسات الادبية واحدا من اهم المفاتيح التي تسهم في اضاءة النص وقراءته قراءة تمنحه طاقة اضافية في التعبير الجمالي والفني واذا كانت

بعض المناهج تعتمد النص اساساً لقراءتها كالمنهج البنيوي [٢] فان هناك مناهج اخرى تعتمد العوامل النشوئية والتكوينية للمؤلف مرتكزاً لتحليلها وقراءتها للنص بوصف النص يمثل ((نوعاً من الاتصال بين مؤلف وقارئ))[٣] وهناك مناهج اخرى تعتمد التلقي اساساً لتحليلاتها فالنص عندها لاينفصل عن تاريخ تلقيه وهو وسيط بين الافق الذي ظهر فيه وأفاقنا الراهنة المتغيرة[٤] وبين هذه المناهج خلافات كبيرة وواسعة تعبر عن خلافات الفلسفات في الغرب، وكانت المدخلات النقدية في حقبة الستينيات ، تعتمد العوامل النشوئية والتكوينية في دراسة النص الادبي ، وهناك محاولات لاعتماد المنهج التاريخي او المنهج الاجتماعي او الاتجاه النفساني عند عدد من النقاد العراقيين والعرب في دراسة النصوص الادبية[٥]

وفي خضم هذه الصراعات الفكرية بين الاتجاهات والمناهج النقدية حاول الدكتور يونس السامرائي ان يرسم له اتجاهاً خاصاً في دراسة الادب العربي في العصر العباسي، ومن دون ان يعتمد على منهج ومقولات جاهزة تضعه في اطار لا يمكنه من حرية الحركة والقراءة والتأويل ، وفي الوقت نفسه يعتمد الاسس العلمية والمنطلقات الرئيسة للمناهج التي تساعده على سبر اغوار النص وتضيء متاهاته ، مجترحا بذلك منهجا خاصاً معتمداً ايجابيات المناهج المختلفة والمتناقضة احياناً.

ويوضح الدكتور السامرائي هذا الاتجاه بقوله : ((كثيراً ما يمهد الدارسون لحياة الشعراء والادباء بشيء من عصر الاديب او الشاعر ، يتناولون فيه الاحوال السياسية والاجتماعية والفكرية وما الى ذلك ... غير اننا لم نأخذ بهذا المنهج في بحثنا هذا ، لاننا في الواقع نتوخى من هذه الدراسة ما يتصل بحياة الشاعر في غضون الحقبة التي امضاها في كنف خلفاء هذه المدينة وسنحاول الاسترسال مع الحوادث التي عاصرها الشاعر وعايشها ، على ان نسجل خلال ذلك ما يعن لنا من الامور المتصلة بحياته واخلاقه وادبه))[٦] واذ كان هذا الاقتباس طويلاً فأننا نجده ضرورياً ومهما لبيان ما اشتغل عليه الدكتور السامرائي واسس بحثه وتتلخص هذه الاسس على العناصر الاتية.

1-موقف الشاعر في ثنائية المكان والزمان (الزمكان) ، وهذا الموقف يعدّ مرتكزا اساسياً لقراءة النص الشعري بوصف ان فهم الزمان والمكان يسهم في تجديد فهمنا للغة النص

ايضاً، كما يذهب الى ذلك باختين بقوله :((ان كل مدخل الى منطقة المعاني لا يمكن ان يتحقق الا من خلال بوابات الزمكان))(7)

2-ان الظرف السياسي والاجتماعي والاقتصادي هو الحافز او الدافع لانتاج الاديب النص الابداعي

3-دراسة موقف الاديب من الاخر ومقدار استجابته لمتطلبات السلطة عبر قراءة اخلاقيات التعامل مع الاخر وما يرشح من النص على وفق هذه المعايير

4-اثر كل المكونات النشوئية في ادب الشاعر ونصه ، وهذا الاثر موجود في النص بوصفه اساس القراءة.

5-الحدث التاريخي المرتبط بالنص والذي شكل دافعاً للشعرية

6-ابقاء عملية القراءة مفتوحة سواء كانت هذه القراءة للمؤلف او النص وبما يسهم بتسليط مزيد من الاضواء على النص.

لقد شكلت هذه المرتكزات الستة مزواجة بين مجموعة من المناهج والاتجاهات النقدية، وكان الدكتور السامرائي يهدف من هذه المزاوجة الاحاطة بالنصوص الشعرية وقراءتها قراءة شاملة ، لذلك بدأ الدراسة بالعوامل النشوئية الاولى للبحتري وعلاقته بالمكان الذي نشأ فيه واصفاً المكان بقوله : ((كانت منبج مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعة .. وابار عذبة صالحة للشرب))(8)

ولو دققنا في هذا القول نجد ان هناك علاقة ايجابية بين المكان والمبدع ، لما يتضمنه المكان من جمالية خاصة لابد لها ان تنعكس على الانسان الذي يعيش فيها ،بعدها ينتقل الدكتور السامرائي الى بيئة التكون التي اسهمت بتفجير شاعرية البحتري واثرت فيه تأثيراً كبيراً بقوله : ((واذا كانت منبج البيئة الاولى التي امدت الشاعر بصور الجمال ومفاتن الطبيعة فان هناك بيئة اخرى كان لها اثر لا ينكر في صقل مواهبه وارهاف حسه وامداده بمعين لا ينضب من سحر جمال الطبيعة ومما تفننت به يد الانسان الصناع من ضروب التزيين والتلوين والابداع واعني بها بئية سامراء))(9) وفي هذا الوصف المكاني شخص الدكتور السامرائي حقيقة مفادها ان العلاقة بين المكان والابداع علاقة قوية ، وهي مؤثرة في لغة الشعر وموضوعاته ، لهذا يوصف شعر البحتري بانه كثير

الوصف لقصور الخلفاء والبرك والرياض وانه شعر جميل ، ان الجمالية واليسر في حياة المدينتين وبيئتهما لم تكونا متوافقتين مع ذات الشاعر توافقاً تاماً حسب ما ذهب اليه الدكتور السامرائي لانه اي الشاعر عاش في كنف ابوين لم يكونا من ذوي اليسار ومن المحتمل انه تلقى تعليمه الاولي كما يتلقاه ابناء الطبقة الفقيرة(١٠) وفي هذا التحديد طرح الدكتور السامرائي ثنائية الخارج والداخل بين الحياة العامة وخصوصية المبدع ، فالعالم المحيط الذي يمتاز بجمالية خاصة لا بد ان ينعكس في ذات المبدع لغة واسلوباً ، الا ان هذا الانعكاس قد يكون مع جملة عوامل اخرى مصدر معاناة للمبدع خاصة اذا عاش هذا المبدع في ظرف اقتصادي صعب وبذلك اصبح العالم المحيط عالماً ثنائيا التأثير في ذات المبدع كما يتضح من تحليل الدكتور السامرائي ، وان هذه الثنائية تعطي للمبدع شخصية خاصة من جهة كذات ، وفي الوقت نفسه ترسم سياقات ابداعه بما ينسجم مع عصره اوعالمه من جهة اخرى ، ويذهب العالم النفسي يونغ في هذا الصدد قائلاً : ((ان كل شخص مبدع فهو شفع او تركيب من مؤهلات متناقضة انه من جهة كائن بشري وله حياته الخاصة وهو من جهة ثانية غير شخصي بل سياق ابداع))(١١) .

ان هذه الجدلية التي ترتكز على المقولات الاساسية لعلم النفس وتوظيفاتها على الجانب الابداعي هي التي وجهت قراءة الدكتور السامرائي في جانب منها نحو العلاقة بين سايكولوجية المبدع والبيئة المحيطة ، فالشاعر (البحتري) موجود في عالم خارجي محسوس غني مترف جميل مقابل ذات مبدعة ربما عاشت الفقر والحرمان ، وهذا التقاطع بين العالمين هو الذي ملأ الشاعر روحياً واوقد احساسه وهو نفسه الذي انتج نمط القصيدة عنده خاصة اذا كانت علاقة الخارج بالداخل علاقة تناقض وصراع (١٢)

نلاحظ مما تقدم ان الدكتور السامرائي اشتغل على الجانب النشوئي التكويني في دراسة البحتري وشعره ، وهذا الاطار العام استند الى عوامل مختلفة وهي :

1-ان علاقة البحتري بالمتوكل كانت علاقة تبني ، فالمتوكل كان بحاجة الى شاعر كبير يعلي من شأنه ، مثلما كان البحتري بحاجة الى من يعطي لشعره قيمته الاعتبارية والمادية، وكان ظرف الدولة التي حكمها المتوكل يساعد على العطايا بسبب وفرة الاموال التي حصل عليها من ايرادات الامصار المختلفة ويذهب المسعودي في هذا الصدد قائلاً

عن المتوكل : ((لا يعلم احد متقدم في جد ولا هزل الا وقد حظي في دولته ووصل اليه نصيب وافر من المال ، وكان منهمكاً في اللذات والشراب وكان له اربعة الاف سرية ووطئ الجميع))[١٣]

2-ان البحتري ارتبط بمدينة سامراء شعرياً اكثر من ارتباطه بمدينة نشأته الاولى (منبج) فكان اكثر شعره يتحدث عن مركز الخلافة العباسية وقصورها وعمرانها والحياة فيها ، كما تحدث عن الخليفة المتوكل ومدحه ، وهذا الارتباط مع المكان كان في تقدير الدكتور السامرائي ارتباطاً ابداعياً ، ويبدو لي ان هذه الاستنتاجات تنطبق على الدكتور السامرائي نفسه وتعلقه بالمدينة التي جاءت معظم مؤلفاته في البحث في تاريخها وأدابها.

3-ان البحتري عاش ثلاثة ازمنة مختلفة الاول زمن النشأة والثاني زمن المتوكل في سامراء ، والثالث زمن المنتصر بن المتوكل ، وهذه الثلاثية الزمنية من وجهة نظر السامرائي تراوحت بين الاستجابة النفسية للظرف الخارجي وبين العزوف عنه ، ففي زمن النشأة كان هناك فقر في عالم غني ، وفي زمن المتوكل كان هناك توافق في الرفاه بين الذات المبدعة والعالم المحيط وفي زمن المنتصر كان هناك افتراق بين العالم الخارجي والذات الشاعرة ، اذ لم يمدح البحتري الخليفة المنتصر الا بقصيدة واحدة كان مجبراً عليها بسبب ما وصله من المقربين من الخليفة ان المنتصر غاضب عليه لانه لم يمدحه.

4-ربط الدكتور السامرائي بين عملية الابداع والزمن الذي يعيشه الشاعر ووجد ان مرحلة التوافق النفسي من البحتري والمتوكل انتجت الشعر الجيد والذي خلد صاحبه اذ ((ثمة علاقة اكيدة بين الكاتب العبقري وعصره))[١٤]

وهذه العوامل شكلت المنطلقات الاولى لدراسة السامرائي شعر البحتري ، ولكن هذه المنطلقات لم تستكمل معالمها الا في كتابه الثاني (البحتري في سامراء بعد عصر المتوكل) وفي هذا الكتاب درس الدكتور السامرائي علاقة البحتري بالخليفة المنتصر ، وهذه العلاقة كما اسلف الباحث لم تكن على وفاق ووئام فالبحتري لم يكن يريد مدح المنتصر لان الاخير هو الذي تأمر على ابيه وقتله بمعاونة عدد من القادة الاتراك ، ومقتل المتوكل في نظر البحتري جريمة كبيرة لا يمكن نسيانها اوغفرانها ، خاصة اذا كانت جريمة قتل ابن

لابيه، وعلى الرغم من ان السامرائي لم يذكر اسباب قتل المنتصر لابيه المتوكل ، الا ان الوثائق التاريخية تشير الى وجود نوع من الكره بين المتوكل والمنتصر ، اذ يشير السيوطي الى ان المتوكل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ، ثم المؤيد ، ثم انه اراد تقديم المعتز لمحبته لامه ، فسأل المنتصر ان ينزل عن العهد فأبى فكان يحضره مجلس العامة ويحط منزلته ويتهدده ويشتمه ويتوعده ، وهذه الاسباب هي التي دفعت المنتصر للاتفاق مع الاتراك لقتل المتوكل [٥٥] .

ان العلاقة السيئة بين المتوكل والمنتصر انعكست بالضرورة على علاقة البحتري بالمنتصر ، وهذه العلاقة هي الرؤية التاريخية للدكتور السامرائي اتي ساعدته على دراسة النص الشعري للبحتري بعد مقتل المتوكل اذ اقام مقارنة فنية وموضوعية بين قصيدتين الاولى قصيدة يرثي فيها البحتري الخليفة المتوكل ، والثانية قصيدة يمدح فيها البحتري الخليفة المنتصر بعد مقتل المتوكل .

وقبل الدخول في المنطلقات الفنية لدراسة شعر البحتري من قبل الدكتور السامرائي نشير الى اهم الاراء التي طرحها النقاد العرب القدماء في شعر البحتري ولعل اهم هذه الاراء ما طرحه الامدي في موازنته التي يقول فيها : ((وان الشعر الوليد ابن عبيد البحتري ، صحيح السبك حسن الديباجة ، ليس فيه سفاسفة ولاردي ولا مطروح ، ولهذا صار مستوياً يشبه بعضه بعضاً))[٥٦] .

ان هذا الرأي لم يتسلمه الدكتور السامرائي جاهزاً بل حاوره وناقشه وقدم حججه وبراهينه واسانيده وذلك من خلال دراسة نصية للقصيدتين المذكورتين.

وكانت ملاحظاته الاولية على قصيدة مدح المنتصر ما يأتي

1-ان القصيدة لاترتفع الى مستوى مدائح البحتري في المتوكل وعزا اسباب تراجع مستوى القصيدة الى الموقف النفسي الذي كان يحرك البحتري من المتوكل ، بقول السامرائي : ((ان الشاعر حتى لم يهنيء المنتصر بالخلافة))[٥٧]

وبهذه الملاحظة اكد السامرائي اعتراضه على المقولات النقدية للامدي عندما اشار الى وجود جيد واقل جودة في شعره ، وهذه الملاحظة هي الجسر الذي انتقل عليه السامرائي للوصول من الجانب الموضوعي الى الجانب الفني في دراسة القصيدة اذ اكد

وجود علاقة بين الابداع والفن والحالة النفسية للشاعر ، وهذه العلاقة درسها النقاد الغربيون واشاروا فيها الى علاقة المحبة والكره بالابداع اذ يذهب روي كاودن الى ان الانسان منذ نشوئه عنده دافع للتعبير عن نفسه فنياً و واذا الم بالاشكال التي تحيط به فأنه سيقولبها من دون براعة[١٨] .

وفي الجانب الفني درس الدكتور السامرائي البنية الكلية لقصيدة البحتري التي مدح فيها الخليفة المنتصر ،وابتدأ من مقدمة القصيدة التي تقول [١٩] .

تبسم عن واضح ذي أشر وتنظر من فاتر ذي حور

وتهتز هزة غصن الاراك عارضه نسم ريح خصر

وهنا يذهب السامرائي محللاً هذه المقدمة بالقول : ((استهل القصيدة بالغزل ثم اشار الى حجته ، وهي الحجة الاولى له التي كانت بسبب اغتيال المتوكل))[٢٠] .

وفي هذه المقدمة شكا البحتري من كبر سنه وصدود محبوبته ، وهي شكوى تقليدية في المقدمة الغزلية للشعر العربي الجاهلي،[٢١] .

اما في القصيدة العربية في صدر الاسلام وفي العصر الاموي فان هذه المقدمة تحولت من بنية فرعية الى بنية ثانوية اقل اهمية في البنية الكلية للقصيدة[٢٢] .

لكن البحتري اعاد لبنية قصيدة مدح المنتصر نمطها التقليدي الجاهلي ، ولكن في هذه المرة بصيغة ملائمة للعصر الذي عاش فيه الشاعر ، فاذا كانت مقدمة القصيدة الغزلية في غرض المديح تنفتح على الرحلة التي يؤكد فيها الشاعر مقدرته على اقتحام مجاهل الصحراء ويشرح معاناته من اجل الوصول الى الممدوح [٢٣] . فأن البحتري استبدل الرحلة الى الممدوح بالحج الى بيت الله الحرام وهذه المسألة تعد محاولة جديدة من قبل الشاعر للمواءمة بين القصيدة التقليدية الموروثة من العصر الجاهلي وما حدث من تطورات عليها في العصر العباسي ، وقد تنبه الدكتور السامرائي لهذه المسألة وذهب الى ان ((هذه الحجة لم تكن للتقى وقضاء الفريضة))[٢٤] .

اي انها تشبه الرحلة التي يقوم بها الشاعر الجاهلي في القصيدة حيث تجمع بين الواقع والخيال من اجل ان تنفتح القصيدة على الغرض.

وبعد رحلة الحج التي قام بها البحتري تأتي مرحلة المفاضلة بين الخليفة الراشدي الثاني (عمر بن الخطاب – رضي الله عنه) والخليفة الراشدي الرابع (الامام علي بن ابي طالب عليه السلام) ويذهب الدكتور السامرائي قائلاً الى ان هذه الابيات تحاول تفضيل الثاني على الاول مع عدم جهود فضل الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه)[٢٥] .

بعد ذلك مدح البحتري الخليفة المنتصر بالله والقصيدة مكونة من (18)بيتاً، ليس فيها من ابيات المدح للخليفة المنتصر اكثر من (9) ابيات اما الابيات الاخرى فهي في الغزل ومدح ال ابي طالب ، وقد لفتت هذه البنية الكلية انتباه الدكتور السامرائي ، فوجد ان مدح الخليفة ارتكز على نقطتين فقط الاولى انه يصف المنتصر بالله (بالحزم والعزم) ، وان هذا المدح جاء على خلفية موقفه الايجابي من الطالبيين ، اذ تذكر الوثائق التاريخية ان البحتري كان هواه مع الطالبيين الا ان هذا الموقف العاطفي والروحي للبحتري لم يجعله قريباً من الخليفة المنتصر لذلك جاءت قصيدته مختلفة من حيث الجودة عن قصائده الاخرى وخاصة تلك التي يمدح فيها الخليفة المتوكل[٢٦] .

وبعد ان درس الدكتور السامرائي البنية الكلية للقصيدة ، درس السياقات والتراكيب وعلاقات الالفاظ ، وهي دراسة تعتمد النص وعلاقاته ، وحاول من خلال دراسته النصية ان يحدد الحالة النفسية للشاعر وموقفه من الممدوح ، كما حاول تحديد الاطار التاريخي الذي اسهم بكتابة هذه القصيدة ، ومواطن ضعفها وقوتها ، بعد ذلك اجرى تقويماً شعرياً لمجمل شعر البحتري وموقع هذه القصيدة في شعر الشاعر ومستواها الفني ، وكانت هذه الملاحظات ترتكز على الجوانب الاتية[٢٧] .

1-ان القصيدة لا ترتفع الى مستوى مدائح البحتري في المتوكل لان الشاعر حتى لم يهنيء المنتصر بالخلافة ، وهذه الملاحظة الموضوعية تشير الى ان الشاعر كان يشعر بالحزن والاسى لما ال اليه امره بعد مقتل ولي نعمته ، ان الشعور بالحزن والاسى ولد قطيعة بين الشاعر والخليفة لذلك لم يمدحه ولم يتقرب اليه ، وغالباً ما كان الشاعر يتصور ان الذي يغدر بوالده (اي غدر المنتصر بالله بالمتوكل) يمكن ان يغدر به ، لذلك انسحب البحتري من مشهد مدح الخليفة الى مشاهد أخرى وجد فيها نفسه . لقد دخل الدكتور السامرائي الى هذه الجوانب التاريخية انطلاقاً من عدم وصول هذه القصيدة الى

المستوى الطبيعي لقصائد البحتري وهي ملاحظة في غاية الاهمية لان الدكتور السامرائي سوغ اختلافه مع الامدي بشأن شعر البحتري كما ذكرنا سابقاً .

2-يعلل الدكتور السامرائي اسباب تراجع البحتري عن مستواه في هذه القصيدة بالذهاب الى ان القصيدة جاءت فاترة العواطف ليس فيها من الحماس للممدوح ما يجعلها مؤثرة في النفوس[٢٨] . وهنا وجد الدكتور السامرائي علاقة بين تأثير النص وموقف الشاعر من الموضوع الذي يكتب فيه.

3-وفي البنية الداخلية للقصيدة اعاب الدكتور السامرائي على البحتري تكراره صفات الممدوح اكثر من مرة ، وهذا التكرار يشير الى واحد بين امرين ، اما ان يكون الممدوح لا يمتلك من الصفات الايجابية ما يجعله مؤهلاً لقصيدة مديح او ان يكون الشاعر غير مبال لصفات الممدوح ويجد فيه من السيئات اكثر من الجوانب الايجابية ،وفي الحالتين فان تكرار الصفات وتحديدها بأطار واحد لا ينم عن ايجابية في العلاقة بين المادح والممدوح ، وفي هذا الصدد يقول السامرائي لقد كرر البحتري ((صفات الحزم والعزم والسداد اكثر من مرة))[٢٩] .

واضاف : ((في هذه القصيدة اوضح البحتري صفات الممدوح فهو يمتاز بالحلم والحزم والانعام والعفو ، بالسير على خطى ثابتة نوعية ليس فيها تناقض ولا تنافر))[٣٠] .

4-ان النص من وجهة نظر السامرائي اشار الى حدث تاريخي لم تذكره المصادر التاريخية مفاده ان حزم المنتصر وأد فتنة كادت تصيب الدولة العباسية بعد المتوكل ولولا حزم المنتصر لاستفحل امر الفتنة وكادت تؤدي الى حرب طاحنة بين رعايا الدولة العباسية ولهذا السبب يجد السامرائي ان تكرار البحتري للحزم والعزم عند المنتصر جاء استناداً الى موقفه في هذه القضية الخطيرة ، ولكن البحتري في هذا الموقف يبدو غير واضح من فكرة (الحزم والعزم) في القصيدة لانه يرى ان سبب الفتنة هو مقتل المتوكل ،وان المنتصر هو الذي اشعلها بقتل ابيه لذلك ذهب الدكتور السامرائي في تعليقه على هذه الابيات التي وصف فيها البحتري حال الناس انذاك بالقول : ((ولعله يشير الى ما اصاب الناس من اضطراب بعد اغتيال والده))[٣١] .

5-تؤكد المعطيات السابقة ان البحتري كان يكره المنتصر لفعلته الدنيئة في قتل ابيه يقول السامرائي في هذا الصدد : ((ان هناك بغضاً في نفس الشاعر على الخليفة ، واستنكاره لفعلته بوالده))[٣٢] .

على وفق ما تقدم فان ما قرره الدكتور السامرائي استند الى جانبين مهمين الاول ان علاقة النص بالحدث التاريخي علاقة عضوية اذ لا يمكن قراءة النص قراءة متكاملة الا من خلال سياقه التاريخي واثر هذا السياق في المكون النفسي والروحي والاجتماعي للشاعر وان ادراك هذه المكونات لا يمكن ان تتكامل الا من خلال النص وعلاقته بالنصوص الاخرى ، ويمكن بيان هذه العلاقة من خلال الترسيمة الاتية

الظرف الموضوعي ⟵ النص ⟵ اعادة انتاج الظرف الموضوعي

والظرف الموضوعي هنا كل العوامل التاريخية التي اثرت في الانتاج الابداعي عامة والشعري خاصة ، وكذلك العوامل المؤثرة في الحالة النفسية للشاعر اما النص ، فانه كل ما يشير الى البرهنة على فرضيات النقاد في العلاقة مع الظرف الموضوعي وكل ما يشير الى مقدرة الشاعر وتعبيره عما يحس به ويعيشه في لحظة كتابة القصيدة ، وعلى هذا الاساس تصبح مدخلات الدكتور السامرائي كما يأتي :_

(مدخلات) موضوعية+نصية ⟵ (المخرجات)تاريخية +النفسية

وقد تحدثنا عن المدخلات والمخرجات معاً ولكن الدكتور السامرائي حاول تأكيد بصمته في الاستنتاج القائل ان شعر البحتري غير مستوٍ من خلال اقامة مقاربة بنيوية بين (النص الشعري الذي مدح فيه البحتري المنتصر بالله والنص الشعري الذي رثى فيه المتوكل) ، وذلك بقوله : ((كانت مرثيته المتوكل تمثل ثورة لنفس البحتري))[٣٣] .

وهذا الموقف العام من القصيدة جاء اثر مقاربتها مع قصيدة مدح المنتصر ، ولكي يسوغ السامرائي موقفه هذا ذهب الى ان القصيدة ((جيدة السبك رائعة اللفظ ، لا تخلو من التقسيم في بعض ابياتها والترصيع بشيء من الصناعة اللفظية ولا سيما الجناس والطباق))[٣٤] .

وفي هذا التقويم النقدي دخل البحتري من العام الى الخاص ، اي من التركيب العام الى خاصية التركيب لذلك اعتمد حكماً قيمياً للقصيدة ولكن هذا الحكم القيمي كان لابد ان يسوغ وكان هذا التسويغ على النحو الاتي:

1-التراكيب وفي تراكيب هذه القصيدة يجد المتلقي قوة وتماسكاً تشير الى قوة الحدث وهيبة الموقف بعد مقتل المتوكل ، اذ تمكن البحتري من الارتفاع بالتركيب الشعري الى مستوى الحدث من خلال العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية والتي تشمل الايحاء الروحي للمفردة في سياقها وبذلك جاءت القصيدة محتملة لقراءات مختلفة ، وهذه القراءات يصفها احد الباحثين بالقول : ((المعنى المعجمي ليس كل شيء في ادراك معنى الكلام ، فثمة (عناصر غير لغوية) ذات دخل كبير في تحديد المعنى بل هي جزء او اجزاء من معنى الكلام ، وذلك كشخصية المتكلم وشخصيته المخاطب .... او الحالة السياسية))[٣٥] .

برهن الدكتور السامرائي على اهمية تحليل العناصر اللغوية في قراءته النقدية قصيدة مدح المتوكل للبحتري التي بدأها بالبيت الاتي:

محل على القاطول اخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاورهْ

يقول الدكتور السامرائي بشأن الانطباع الاول الذي تتركه القصيدة عند المتلقي ما يأتي : ((فأنك تحس بالقوة والعنف في هذا الرثاء))[٣٦] .

وهذا المنعكس الاولي للقصيدة ليس انطباعياً صرفاً عند الدكتور السامرائي بل يستند الى جملة من العوامل اللغوية والفنية والموضوعية التي يمكن ادراكها من اجراءاته الاخرى على عناصر النص.

2-ان البحتري اختار الفاظه من ذوات الحروف الفخمة ، او من النوع الذي كان يسمونه بالجزل ، ويعلل السامرائي اسباب اختياره هذه الالفاظ الى غضب وثورة البحتري على مقتل المتوكل[٣٧] .

3-وجد السامرائي علاقة بين الحالة النفسية للشاعر واختياره الحروف والكلمات في القصيدة ليصل الى نتيجة مفادها ان هذه اللغة تشير الى ان البحتري كأنه يريد ان يقول يجب الانتقام من القتلة[٣٨] .

4-يشبه السامرائي قوة الالفاظ وجزالتها بقعقعة السلاح واضطراب النفس من جراء هذا الحدث الجلل بقوله: ((حتى لكان الالفاظ بها قعقعة السلاح ودوي الروح الحزينة))[٣٩] .

5-ربط السامرائي بين القافية ودلالة القصيدة ، اذ وجد ان قصيدة الرثاء انتهت بقافية ساكنة وان هذا السكون من وجهة نظر السامرائي يعني الموت بقوله: ((وفق في ربط القوافي بالهاء الساكنة كأنه يريد ان يقول ان الهاء الساكنة تعني سكون الموت))[٤٠] .

ان هذه العناصر الخمسة مهدت للسامرائي دراسة العلاقة المتينة التي ربطت البحتري بالمتوكل وان البحتري ربما بكى المتوكل بكاء مريراً ، وهذا الاستنتاج نابع من حركة الصوت في القصيدة اذ يقول السامرائي : ((جعل الصوت بين انطلاقه في الكلمات والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية وكأنه لم تعد فيه بقية .... والارتفاع والانخفاض يشير الى ان الشاعر نائح))[٤١] .

ويمكن وضع ترسيمة لاتجاهات التحليل عند الدكتور السامرائي على النحو الاتي :

كلمة (مفردة) ←— اكبر ←— من كلمة (تركيب) ←— اصغر من كلمة مورفيم متصل ←— اصغر من مورفيم

وهذا التقسيم الدلالي قريب مما اعتمده ابن جني في الخصائص[٤٢] .

وفي هذا التحليل استثمر السامرائي نظام اللغة وما يمكن ان يمنحه من دلالات مختلفة في التفكير والتلقي ، وهذا النمط من التحليل ينتمي في اجراءاته الى التحليل البنيوي لانه استند الى ان اللغة تقع في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعية بالفكرة ، وهي الجانب الاجتماعي من اللسان[٤٣] .

وان الاشارات اللغوية ، سايكولوجية في جوهرها ، وهي ليست تجريدية وان اللغة تتألف من مجموعها [٤٤] .

ان استخدام السامرائي دلالة الحركات والحروف يشير الى تنبه مبكر لاهميتها في قراءة النص ، فاستخدام البحتري حرف الراء المتحرك يشير الى انه محاولة لاسماع الناس الحدث الجلل الذي الم بالخلافة العباسية بموت المتوكل لان (الراء) من اوضح الاصوات الساكنة في السمع [٤٥] .

أما الهاء فهو صوت رخو مهموس ، عند النطق به يندفع الهواء من الرئتين ويحدث نوعاً من الحفيف ، ويصف الدكتور ابراهيم أنيس عملية النطق بهذا الحرف فيقول :((يندفع من الرئتين كمية كبيرة من الهواء اكبر مما يندفع من الاصوات الاخرى ، فيترتب عليه سماع صوت الحفيف مختلطاً بذبذبة الوترين الصوتيين))[٤٦] .

وهذه العلاقة الصوتية للحرف مع الجانب البايولوجي لنطق الحرف كانت في نظر الدكتور السامرائي قد اوحت (من خلال طريقة نطق الحرف) الى عظمة الموقف في وفاة المتوكل ، وان هذا الموقف مرسوم في دلالة الحرف والجملة والتركيب واللفظ ، وهو على ما نراه ريادة في تحليل النص الشعري اعتمده الدكتور السامرائي منذ وقت مبكر وذلك من خلال استخدامه معطيات العوامل النشوئية والتكوينية ومعطيات علاقات النص اللغوية.

ملحق اول قصيدة رثاء المتوكل

صريع تقاضاه السيوف

محل على القاطول أخلق دائرهْ ... وعَادتْ صرُوف الدهّرِ جيَشاً تُغاورُهْ
كأن الصبَّا توُفي نذُوراً اذا انبرَتْ ... تُراوحُهُ أذ يالُهَا ، وتَبُاكرُهْ
وَرُبّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمّ عَهْدُهُ ... تَرِقُّ حَواشيهِ ، وَيُورِقُ نَاضِرُهْ
تَغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه ، فجاءة ... فعادت سواء دوره ، ومقابره
إذ نحن زرناه أجدّ لنا الاسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم انس وحش القصر،اذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجاذره
وإذ صيح فيه بالرحيل ، فهتكت ... على عجل استاره وستائره
ووحشته ، حتى كأن لم يقم به ... انيس ، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها ، والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها ... وبهجتها ، والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب، حيث تمنعت ... بهيبتها ابوابه ، ومقاصره
واين عميد الناس في كل نوبةٍ ... تنوب ، وناهي الدهر فيهم وآمره

تخفـــى لـــه مغتالـــه ، تحـــت غـــرة، وأولـــى لمـــن يغتالـــه لـــو يجـــاهره
فمـــا قاتلـــت عنـــه المنايـــا جنـــوده ، ولا دافعـــــت املاكـــــه وذخـــــائره
ولا نصر المعتـــز مـــن كـــان يرتجـــي له ، وعزيز القوم مـــن عـــز ناصـــره
تعرض نصل السيف مـــن دون فتحـــه وغيب عنه فـــي خراســـان ، طـــاهره
ولو عاش ميـــت ، أو تقـــرب نـــازح، لـــدارت مـــن المكـــروه ثـــم دوائـــره
ولـــو لعبيـــد الله عـــون علـــيهم ، لـــضاقت علـــى وراد أمـــرٍ مـــصادره
حلـــوم اضـــلتها الامـــاني ، ومـــدة تناهـــت ، وحتـــف أو شـــكته مقـــادرهْ
ومغتصب للقتل لـــم يخـــش رهطـــه ، ولـــم تحتـــشم اســـبابه وأواصـــرهْ
صريع تقاضـــاه الـــسيوف حـــشاشة ، يجود بهـــا ، والمـــوت حمـــر اظـــافره
أدافـــع عنـــه باليـــدين ، ولـــم يكـــن ليثني الاعادي أعـــزل الليـــل حاســـره
ولو كان سيفي ساعة الفتك فـــي يـــدي درى الفاتك العجـــلان كيـــف أســـاوره
حرام علـــيّ الـــراح ، بعـــدك ، او أرى دماً بدمٍ يجـــري علـــى الارض مـــائره
وهل ارتجـــي أن يطلـــب الـــدم واتـــرٌ يد الـــدهر ، والموتـــور بالـــدم واتـــره
أكـــان ولـــي العهـــد أضـــمر غـــدرة ؟ فمن عجـــب أن ولـــي العهـــد غـــادره
فلا ملي البـــاقي تـــراث الـــذي مـــضى ولا حملـــــت ذاك الـــــدعاء منـــــابره
ولا وألّ المـــشكوك فيـــه ، ولا نجـــا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره
لـــنعم الـــدم المـــسفوح ليلـــة جعفـــر هرقتم ، وجنح الليـــل ســـود ديـــاجرهْ
كـــأنكم لـــم تعلمـــوا مـــن وليـــه ، وباغيـــه تحـــت المرهفـــات وثـــائره
وإنـــي لارجـــو أن تـــرد أمـــوركم إلـــى خلـــف مـــن شخـــصه لا يغـــادره
مقلـــــب اراء تخـــــاف أناثـــــه إذا الاخرق العجـــلان خيفـــت بـــوادره

.....

معاني الكلمات:

1أخلق : بلي . دائرة : رسمه . تغاوره : تغير عليه.

2القصر : اراد قصر اللؤلؤة الذي بناه المتوكل في الجعفري . سربه : قطيعه . أطلاؤه ، الواحد طلا : ابن الظبي . الجآذر ، الواحد جؤذر : ابن البقرة الوحشية تشبه به النساء لجمال عينيه.

واراد بالاطلاء والجآذر : الاولاد والنساء

ملحق ثان

وقال يمدح المنتصر بالله

تبسم عن واضح ذي اشر ، وتنظر من فاتر ذي حور
وتهتز هزة غصن الاراك عارضه نسم ريحٍ خصرْ
وممـا يبدد لب الحكيم حسن القوام ، وفتر النظر
وما انس لا أنس عهد الشباب وعلوة ، إذ عيرتني الكبر
كواكب شيبٍ علقن الصبى فقللن من حسنه ما كشر
وإني وجدت ، فلا تكذبن ، سواد الهوى في بياض الشعر
ولا بد من ترك إحدى اثنتين: إما الشباب ، وإما العمر
ألم تر للبين كيف انبرى، وطيف البخيلة كيف احتضر
سروا موجفين لسعي الصفا ، ورمي الجمار . ومسح الحجر
حججنا البنية شكراً لما حبانا به الله في المنتصر
من الحلم عند انتقاض الحلوم والحزم عند انتقاض المرر
تطول بالعذل لما قضى ، وأجمل في العفو لما قدر
ودام على خلقٍ واحد ، عظيم الغناء ، جليل الخطر
ولم يسع في الملك سعى امرئ تبدأ بخير ، وثنى بشر
ولا كان مختلف الحالتين يروح بنفع ، ويغدو بضر
ولكن مصفى كماء الغمام ، طابت أوائله والاخر
تلافى البرية من فتنةٍ ، اظلهم ليلها المعتكر
ولما ادلهمت دياجيرها تبلج فيها مكان القمر
بحزمٍ يجلي الدجى والعمى، وعزمٍ يقيم الصغا والصعر
شداد فتلت به يوم ذاك حبل الخلافة حتى استمر
وسطو ثبت به قائماً على كاهل الملك ، حتى استقر
ولو كان غيرك لم ينتهض بتلك الخطوب ، ولم يقتدر
رددت المظالم ، واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر

وال ابـــــي طالـــــب بعـــــدما	أذيـــــع بـــــسربهم فابـــــذعر
ونالـــــت أدانـــــيهم جفـــــوة ،	تكـــــاد الـــــسماء لهـــــا تنفطـــــر
وصـــــلت شـــــوابك ارحـــــامهم ،	وقـــــد أوشـــــك الحبـــــل أن ينبتـــــر
فقربـــــت مـــــن حظهـــــم مـــــا نـــــأى ،	وصـــــفيت مـــــن شـــــربهم مـــــا كـــــدر
وايـــــن بكـــــم عـــــنهم ، واللقـــــاء	لا عـــــن تنـــــاء ولا عـــــن عفـــــر
قـــــرابتكم بـــــل إشـــــقاؤكم ،	وإخـــــوتكم دون هـــــذا البـــــشر
ومـــــن هـــــم وأنـــــتم يـــــدا نـــــصرةٍ	وحـــــدا حـــــسامٍ ، قـــــديم الاثـــــر
يـــــشاد بتقـــــديمكم فـــــي الكتـــــاب ،	وتتلـــــى فـــــضائلكن فـــــي الـــــسور
وإن عليـــــاً لأولـــــى بكـــــم ،	وازكـــــى يـــــداً عنـــــدكم مـــــن عمـــــر
وكـــــل لـــــه فـــــضله والحجـــــول	يـــــوم التفاضـــــل ، دون الغـــــرر
بقيـــــت امـــــام الهـــــدى للهـــــدى ،	تجـــــدد مـــــن نهجـــــه مـــــا دثـــــر

.....

معاني الكلمات:

ناصده : أخذ كل بناصية الاخر.

ذي اشر : اي اطراف اسنانه محددة واراده بالفاتر النظر : الساكن ، الذابل.

الاحتضار : حضور الموت ، النزع

المرر : الواحدة مرة : الحالة التي يستمر عليها الشيء

الصغا : الميل. الصعر : ميل الوجه الى احد الشقين كبرياء.

أبذعر : تفرق.

العفو : ظاهر التراب ، ومعناه غير موافق ، ولعله محرف.

الحواشي

1-ينظر الانتماء في الشعر الجاهلي : فاروق احمد اسليم ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1998. ص12

2-ينظر اتجاهات في النقد الادبي الحديث : جوناثان كيلر وآخرون ، ترجمة الدكتور محمد درويش دار المأمون للترجمة والنشر ،بغداد 209-ص106

3-النظرية الادبية الحديثة تقديم مقارن- جفرسون وديفد روبي- ترجمة سمير مسعود -منشورات وزارة الثقافة -سورية دمشق -1992 -ص17.

4-ينظر نظريات التلقي : مقدمة نقدية ، روبرت هولب -ترجمة عز الدين اسماعيل النادي الادبي ، السعودية -جدة 1994 -ص24

5-عرف الدكتور طه حسين باعتماد المنهج التاريخي في دراساته النقدية ، واتضح ذلك في كتابه (حديث الاربعاء) الذي وجدنا نصوصه في كتاب المتنبي الروح القلقة والترحال الابدي محمد ايت العميم – المغرب مراكش 2010 ص41.

اما المنهج الاجتماعي فينظر كتاب الافق الادبي – مقالات للدكتور علي جواد الطاهر المؤسسة العربية للدراسات بيروت 1978 ص35 وما بعدها.

وبرز الاتجاه النفساني في مقال النقد السيكولوجي لعباس محمود العقاد في جريدة الاخبار المصرية بتاريخ1961/4/5

6-البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل د.يونس السامرائي وزارة الثقافة والاعلام العراق- بغداد -1970 -ص9

7-اتجاهات في النقد الادبي ستيسي بيرتل واخرون.ترجمة الدكتور محمد درويش ،دار المأمون بغداد 2009ص347.

8-البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص8

9-المصدر نفسه ص9

10-المصدر نفسه

11-علم النفس التحليل : كارل يونغ ، ترجمة نهاد خياط و دار الحوار -بيروت -ص209

12- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي : عبد القادر فيدوح ، اتحاد الكتاب العرب -دمشق1992- ص255

13-تاريخ الخلفاء من الخلافة الراشدة الى سنة 903ه ، جلال الدين السيوطي مؤسسة المختار للنشر والتوزيع -القاهرة-2004 -ص380

14-مقالات في الادب والنقد الفرنسي :ج ف ايرلان واخرون – دار المأمون للطباعة والترجمة- بغداد -2011 ص90

15-تاريخ الخلفاء : مصدر سابق ص380

16-الموازنة الامدي ص333

17- البحتري بعد عصر المتوكل الدكتور يونس السامرائي –مطبعة الارشاد بغداد-1971 ص11.

18-ينظر الاديب وصناعته : روي كاودن ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، منشورات مكتبة منيمنة – بيروت 1962-ص 148

19- ديوان البحتري ، دار صادر بيروت ، 1992 ص 114.

20- البحتري بعد عصر المتوكل ص10.

21- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي دار المعارف القاهرة 1970 ص82

22- مقدمة القصيدة العربية في العصر الاموي حسين عطوان دار الجليل بيروت 1987 ص91.

23- ينظر : الرحلة في القصيدة الجاهلية وهب رومية ، مؤسسة الرسالة 1982 ص91.

24- البحتري بعد عصر المتوكل ص11.

25- المصدر نفسه ص11.

26- المصدر نفسه

27- المصدر نفسه ص12.

28- المصدر نفسه

29- المصدر نفسه

30-المصدر نفسه

31- المصدر نفسه

32-المصدر نفسه ص13

33- المصدر نفسه ص14

34- المصدر نفسه ص13

35-علم اللغة مقدمة للقارئ العربي محمود السعران دار المعارف الاسكندرية 1962 ص288.

36-البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص281.

37-المصدر نفسه281

38-المصدر نفسه 282

39-المصدر نفسه 282

40-المصدر نفسه 282

41-المصدر نفسه 282

42-الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : أحمد سليمان ياقوت دار المعرفة الاسكندرية 1989 – ص20.

43-علم اللغة العام :فرديناند دي سوسور- ترجمة يوئيل يوسف عزيز – دار الشؤون الثقافية – بغداد 1985 ص33.

44-المصدر نفسه ص33.

45-الاصوات اللغوية : ابراهيم انيس مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة 1999 ص58.

46-المصدر نفسه- ص77.